خيارات قمة تونس.. وتطلعات الأمة العربية!!

لايفصلنا عن موعد عقد القمة العربية المؤجلة سوى بضع أيام في العاصمة التونسية إلا أن قضايا الأمة ومشاكلها التي لاتحتمل التأجيل ازدادت تعقيداً على ماكانت عليه قبل شهر وثلاثة أسابيع تاريخ لقاء الزعماء العرب الدوري«السنوي» الذي كان مقرراً وأعلن تأجيله المفاجئ في الساعات الأخيرة لانتهاء اجتماع وزراء الخارجية العرب التحضيري وبدون الدخول في التفاصيل وموقف كل طرف تظل الحقيقة البارزة أمام القادة العرب هي أن أي تأجيل أو ترحيل للقضايا المصيرية لن يصب إلا في مجرى ولصالح الأحداث المحدقة بنا كدول وشعوب وجغرافيا العالم العربي وهو ما أكدته تطورات الأسابيع الماضية على الجبهتين الفلسطينية والعراقية.

محمد القراري

وبالنظر المتأمل لما جرى بين «تونس (١) وتونس(٢)»أنجد الكثير من المتغيرات التي شهدتها الساحة العربية وبالذات فيما يتعلق بالشأنين الفلسطيني والعراقي الأمر الذي يتوجب عقد مجموعة من القمم وليس الاختلاف على هوامش تكبر لتتحول إلى مانع لعقد قمة دورية.

● فقبل ٢٩ مارس بأيام اغتالت قوات الاحتلال الشيخ/أحمد ياسين زعيم حركة حماس وقبله أعلنت الإدارة الأمريكية مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير وفرضه من خارج المنطقة كروشتة علاج دون سماع شكوى المريض.

وكان على العرب المسارعة في عقد القمة التي جرت اجراءات الاستعداد لها من مشاورات ولقاءات واتصالات الى نهاية المطاف لولا ظهور مأزق اللحظة الأخيرة في اجتماعات وزراء الخارجية بتونس وهو ما أصاب الشارع العربي بصدمة كبيرة زادت من تساؤلاته بمدى مشروعية بقاء جامعة الدول العربية بمؤسساتها وآلية عملها غير القادرة علي مواجهة التحديات وتفضل الهروب بدلاً عن ذلك.

● وكانت اليمن قد تقدمت بمبادرة اصلاح البيت العربي وصفت من قبل كثير من السياسيين والمحللين العرب بالعملية خاصة وأنها دعت الى قيام اتحاد عربي ومجلس تنفيذي وبرلمان في خطوة لإشراك الرأي العام العربي في اتخاذ القرارات المصيرية.

والمبادرة اليمنية كانت الى جانب عدد من المبادرات الداعية الى ضرورة اصلاح المنظمة العربية تقدمت بها كل من مصر السعودية سوريا والأردن إلا أن تطورات الأحداث دفعت الى تأجيل النظر بهذا الملف وترحيله الى قمة قادمة.

وعراقياً كان المشهد يعكس إحدى صور التردي العربي وحالة الانقسامات الخفية والظاهرة بعد أن مضى عام على اختلاله من قبل القوات الأمريكية والبريطانية وبعض حلفائهما والتي انتقلت الدول العربية من الرفض لهذا الاحتلال إلى التعامل معه والقبول بمن يعينه الحاكم المدني الأمريكي للعراق بول بريمر كأمر واقع والإكتفاء بالدعوة والمطالبة وبصورة خجولة قوات الإحتلال بالانسحاب وإعطاء دور للأمم المتحدة لمساعدة الشعب العراقي بأن يقوم بإدارة شئونه واختيار حكومته بطريقة ديمقراطية حقيقية دون إملاءات.

● مع أن الحقائق والمتغيرات التي ولّدها احتلال دولة عربية ودخول قوات أجنبية عمق العالم العربي وفوق مخزون ثرواته الطبيعية ومايتركه من إحباط للشارع العربي وضاعف من وتيرة النكسات وتعقيد العلاقات بين المواطنين والأنظمة واتجاهها نحو التأزم وعدم الثقة واللامبالاة مع أن الحماس والزخم الجماهيري الذي كان يقف خلف انعقاد قمة مارس كان أقوى وأكثر مساعدة للزعامات العربية لاتخاذ قرارات وموقف قوية الأحداث داخل المنطقة ومحيطها الإقليمي قد تمنع الآخرين من التفكير في التدخل ليس في شئون المنطقة بل وفي خصوصيات الأنظمة كل على حده ومع ذلك لم تعقد قمة«تونس-١» في موعدها.

ومنذ قرار التأجيل وحتى الاتفاق على عقدها أيضاً في تونس وكما هو معلن حددت في «٢٢-٢٣» من شهر مايو الجاري لم تتأجل التحديات ولم تجمد المخاطر بل تسارعت واتسعت أحبالها فالكيان الاسرائيلي تمادى ليقوم بعملية اغتيال جديدة استهدفت عبدالعزيز الرنتيسي قائد حركة حماس الجديد الذي حل محل الشيخ ياسين في أقل من شهر بين عملية الاغتيال الأولى والثانية.

● والتحول الأخطر في قضية الصراع العربي الإسرائيلي الذي تحول مؤخراً للصراع الفلسطيني الاسرائيلي يتمثل في الموقف الأمريكي تجاه هذه الأزمة التي مضى عليها ستة عقود هي عمر جامعة الدول العربية عندما تعهد الرئيس الأمريكي جورج دبليوبوش لرئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون في ١٤ ابريل الماضي بأن حدود ١٩٦٧م ليست ملزمة وكذلك حق اللاجئين في العودة ودعم خطة شارون القائمة على فك الارتباط الأحادي وبناء جدار الفصل العنصري في الضفة والانسحاب من ٩ مستعمرات في غزة مقابل الإبقاء على أكثر من ٢٥٠ ألف مستوطن في أراضي الضفة وما إلى ذلك من المشاريع التي أخذ الإسرائيليون يطلقونها دون اعتبارات للقوانين الدولية أو مراعاة لبقية أطراف الصراع كالسلطة الوطنية الفلسطينية التي أضحى زعيمها المناضل ياسر عرفات محاصراً في مقره برام الله واتسعت التهديدات والتلميحات الاسرائيلية باعتقاله أو اغتياله أو طرده بالقوة الى غزة.

● وفي الخامس من مايو الجاري عاد بوش في محاولة منه لتهدئة الشارع العربي ليعلن التزامه بتوسيع الحوار مع السلطة الوطنية الفلسطينية ودعم إقامة دولة فلسطينية وفقاً لخطة خارطة الطريق حتى وإن لم يتم الاتفاق على الوضع النهائي كالحدود واللاجئين وغيرها من الأمور السيادية التي لاتوجد أي تعهدات أمريكية بمنع اسرائيل من القيام بها ضد الشعب الفلسطيني الأعزل بعدما خذل حتى من ردة فعل الشارع العربي إزاء مايتعرض له كالتظاهر إلا من نفر في بعض العواصم العربية.

● والوضع لايختلف على الساحة العراقية عندما حولت قوات الاحتلال الأمريكية مدينة «الفلوجة» الى مقبرة جماعية وسجن كبير لمدة (٥)أسابيع من أجل تركيعها وإخضاع سكانها الرافضين للاحتلال الى بيت الطاعة وتحت الإدارة المدنية لـ«بول بريمر» دون أن يحرك العرب ساكناً..

وليس ذلك فقط بل كان التعامل العربي الأضعف هو السائد إزاء فضيحة سجن أبوغريب الذي كشفته الصور الملتقطة لجنود أمريكيين وهم يمارسون أبشع صور التعذيب ضد المعتقلين العراقيين والتي عكست بجلاء سادية وحقد الأمريكيين على الشعوب العربية والإسلامية والتجرد من كل قيم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان التي يتذرعون بها بل ويجعلونها مبرراً لدعواتهم لإصلاح منطقة الشرق الأوسط الكبير مع أن مايحدث العكس..

● وأمام تسارع الأحداث التي لاتسر أحداً في المنطقة أخذت بعض الدول التحرك لمواجهتها وتحت مظلة التضامن العربي وأطلقت المبادرات الخاصة بتقديم رؤية متطورة وتصورات لمواجهة تأزم الأوضاع في فلسطين والعراق.

● وأطلقت اليمن مقترحات عرفت باسم خارطة عربية لحل الأزمة فالعراق وفلسطين لقيت الترحيب حتى من أطراف دولية فاعلة مثل الاتحاد الأوروبي واعتبرت المبادرة اليمنية جيدة كونها تأخذ بمختلف التطورات الجارية خاصة أنها تستند على قرارات الشرعية الدولية وتتناول عناصر الديمقراطية وحقوق الإنسان والتنمية الاقتصادية انبثاقاً من قناعات الشعوب والحوار المتكافئ ورفض الاملاءات من الخارج وفرض الاصلاحات ، والموقف اليمني الرسمي يتطابق تماماً مع مواقف عدد من البلدان العربية الرسمية والجماهيرية وهو مايتوجب أن تأخذه القمة في أجندتها التي ستبحث في تونس بعد أيام.

والجهود التي بذلت عقب فشل لقاء تونس الأول الذي كان مقرراً وهذا المرتقب من قبل جميع أطراف الدول العربية وبخاصة الأمين العام للجامعة السيد/عمرو موسى الذي جاب عواصم الدول إضافة الى عقد عدة قمم الثنائية والثلاثية حتى تم الاتفاق على مكان وزمان القمة يتوجب أن تكون قراراتها بمستوى تلك الجهود.

والأهم أن ترد على المشاريع والمقترحات التي يجري التسويق لها في المنطقة كارسال قوات عربية الى العراق المحتل وفي ظل سيطرة القوات الأمريكية وقيادتها، وذلك بإتخاذ مواقف عملية تعزز دور الأمم المتحدة والمجتمع الدولي إلى جانب دور الجامعة العربية كما اقترحت بلادنا وهو مالايختلف عليه اثنان بل والمطلوب مساعدة الشعب العراقي وفي محنته التي يواجهها في الفلوجة والنجف وغيرها من المدن المقاومة.

أيضاً الاستفادة من ردود أفعال الرأي العام العالمي المستنكر لماجرى للأسر والمعتقلين العراقيين وعددهم بالآلاف في سجن أبوغريب وغيره على أيدي قوات الاحتلال وتكثيف التواصل الايجابي مع التغيير الايجابي في توجهاته لتحويل النظرة السليمة التي تكونت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م عن المواطن العربي والمسلم والتي استغلتها آلة الدعاية الصهيونية فعلى العرب أن لايتركوا هذه الفرصة تذهب بل على القمة أن توجد آليات دبلوماسية وإعلامية قادرة على مخاطبة الرأي العام الامريكي والدولي ووضعه أمام الصورة الحقيقية لما يتعرض له أبناء فلسطين من ارهاب الدولة الإسرائيلية وأبناء العراق وأن الانسان العربي والمسلم ليس ذلك الارهابي بل ضحية عملية إرهابية منظمة ويقوم به من يلبسون البزة العسكرية الأمريكية والاسرائيلية.

فالخيارات تضاءلت أمام القمة العربية الرابعة الدورية فليس أمامها إلا أن تعلن وفاة العمل العربي المشترك ومنظمته ومؤسساته نهائياً والتوقيع على شهادة الوفاة من جميع القيادات وهو المرفوض من قبل ٣٠٠ مليون نسمة سكان العالم العربي أو الخروج بمشروع عربي تضامني يأخذ أولاً توجهات المواطن العربي ثم التعامل مع المتغيرات الاقليمية والدولية بما يصب في مصلحة العالم العربي بعيدة المدى بمنطق عقلاني بعيداً عن سرعة التأثر والاستجابة الانفعالية أو السليمة لكل ما يملى من الخارج فكفى شعارات وخطابة ووعود.. فالمنطقة لاتحتمل هذه المرة بالذات وأنها تهان كرامتها عبر شاشات الفضائيات والتلفزة بشكل منظم الهدف كسر الكرام وترسيخ الإذلال.